العدد A14 مجلة دراسات في الإنسانيات والعلوم التربوية آب 2026
No. 14A Journal of Studies in Humanities and Educational Sciences Aug 2026
Print ISSN 3006-3256 Online ISSN 3006-3264

بحث عن: النقد النسقي عند طه عبد الرحمن بين المنهج التراثي والحداثة الإسلامية (دراسة في الأسس النظرية والتطبيقات المنهجية)

م.د. مصعب حسن علي النعيمي
المديرية العامة لتربية نينوى
student.uomosul.edu.iq@166musab.arp

الملخص

يسعى هذا البحث إلى دراسة مفهوم النقد النسقي في الفكر الفلسفي لطه عبد الرحمن، بوصفه أحد أبرز الفلاسفة العرب المعاصرين الذين جمعوا بين أصالة التراث الإسلامي واستيعاب مناهج الحداثة الفلسفية الغربية. ويرتكز البحث على تحليل الأسس النظرية والفلسفية التي يقوم عليها النقد النسقي في مشروع طه عبد الرحمن الفكري، بدءاً من نقد العقل العربي ومفهوم التداولية النقدية، مروراً بمبدأ المزاوجة بين التراث والحداثة، وصولاً إلى التطبيقات المنهجية في ميادين الأخلاق والتصوف والفلسفة اللغوية. وتخلص الدراسة إلى أن طه عبد الرحمن قدّم نموذجاً نقدياً متماسكاً يتجاوز ثنائية الأصالة والمعاصرة نحو بناء حداثة إسلامية أصيلة، تجعل من العمل الأخلاقي وتجديد العقل التداولي مرتكزَين أساسيَّين لكل إنتاج فكري وحضاري.

الكلمات المفتاحية: طه عبد الرحمن- النقد النسقي - التداولية النقدية - الحداثة الإسلامية- الفلسفة العربية المعاصرة- العلمانية – روح الدين.

Research on: Systemic Criticism in Taha Abd al-Rahman's Work: Between A Study in Theoretical)Traditional Approach and Islamic Modernity (Foundations and Methodological Applications

Dr. Musab Hassan Ali Al-Nuaimi
General Directorate of Education in Nineveh
student.uomosul.edu.iq@166musab.arp

Abstract

This research seeks to study the concept of systemic critique in the philosophical thought of Taha Abd al-Rahman, one of the most prominent contemporary Arab philosophers who combined the authenticity of Islamic heritage with an assimilation of Western philosophical modernity methodologies. The research focuses on analyzing the theoretical and philosophical foundations of systemic critique in Taha Abd al-Rahman's intellectual project, beginning with a critique of Arab reason and the concept of critical pragmatics, moving through the principle of integrating heritage and modernity, and culminating in methodological applications in the fields of ethics, Sufism, and philosophy of language. The study concludes that Taha Abd al-Rahman presented a coherent critical model that transcends the dichotomy of authenticity and modernity, moving towards the construction of an authentic Islamic modernity that makes ethical action and the renewal of pragmatic reason two fundamental pillars of all intellectual and cultural production.

Keywords: Taha Abd al-Rahman - Systemic criticism - Critical pragmatics - Islamic modernity - Contemporary Arab philosophy - Secularism - Spirit of religion.

- أهداف البحث: يهدف هذا البحث إلى تقديم قراءة تحليلية استكشافية بهدف الوصول إلى التعريف الدقيق للنقد النسقي في مشروع طه عبد الرحمن، وتبيان الأسس الفلسفية التي يقوم عليها، وكذلك البحث عن

تطبيقاته في الميادين المختلفة من أخلاق ولغة وتصوف وحداثة، والبحث عن مدى إسهامه في تأسيس حداثة إسلامية مستقلة وأصيلة.

- أهمية البحث: تكمن أهمية هذه البحث في أن النقد النسقي عند طه عبد الرحمن لم يُدرَس بالكيفية المنهجية الشاملة التي يستحقها، رغم أنه يُمثّل العمود الفقري لكل إنتاجه الفكري. وقد تناول بعض الباحثين جوانب منه في دراسات متفرقة، غير أن الاستيعاب الكلي لبنيته النظرية وتطبيقاته المنهجية في ميادين متعددة لا يزال في حاجة إلى مزيد من التعمق والتنسيق.
- اشكالية البحث: تدور الإشكالية الأساسية للبحث حول السؤال الآتي: إلى أي مدى نجح طه عبد الرحمن في تطوير منهجية نقدية أصيلة وفعالة تجمع بين الأصالة والمعاصرة، ويتفرع عن هذا السؤال الأساسي إلى تساؤلات عدة منها:
- **ما الأسس النظرية والفلسفية للنقد النسقي عند طه عبد الرحمن؟**
- **كيف يتعامل النقد النسقي مع إشكالية العلاقة بين التراث والحداثة؟**
- **ما مدى فعالية التطبيقات العملية للنقد النسقي في نقد الخطابات المعاصرة؟**

وغيرها من الأسئلة التي يتناولها البحث في مباحثه باحثاً لها عن مخرجات منهجية تحت مظلة النقد النسقي.

منهج البحث: اعتمد البحث منهجاً تحليلياً نقدياً وصفياً يُزاوج بين القراءة الداخلية لنصوص طه عبد الرحمن الأولية، والمقارنة بالمشاريع النقدية العربية والغربية المجاورة، مع الحرص على الدقة التصورية في فهم المفاهيم وتوظيفها.

المقدمة

انصرف النقاد المغاربة إلى مناظرة الفكر الغربي، واجتهدوا في ابتكار بدائل حقيقية لأطروحاته الحداثوية التي اخترقت الوعي العربي في مجالاته العلمية والأدبية. وفي طليعة هؤلاء يتصدر الفيلسوف المغربي طه عبد الرحمن* الذي يتخذ هذا البحث من النقد النسقي لدبه عينة له، باعتباره منهجاً نقدياً متميزاً يجمع بين التحليل المنطقي والتشقيق اللغوي والإمدادات الروحية من التجربة الصوفية؛ إذ يتناول البحث الأسس النظرية للنقد النسقي عَبرَ تتبع مراحل تطور فكره النقدي وتحليل منهجيته في نقد الحداثة الغربية وتأسيسه لمشروع الحداثة الإسلامية البديلة، وهذا الانفتاح في التحليل والاستقصاء يؤمنه لنا النقد النسقي الذي يمثل اليوم إسهاماً مهماً في تطوير منهجية نقدية عربية إسلامية معاصرة، تتجاوز الثنائيات التقليدية وتؤسس لنموذج معرفي جديد.

ومن الجدير بالذكر أن طه عبد الرحمن يقع في صميم التحولات الكبرى التي شهدها الفكر الإسلامي المعاصر خلال النصف الثاني من القرن العشرين فهو فيلسوف وُلد في عصر ترزح فيه المجتمعات الإسلامية تحت وطأة أسئلة وجودية حادة تتصل بمصير هويتها أمام موجات الحداثة الغربية المتلاحقة، وتتشابك فيها إرهاصات النهضة مع نقمة الاستعمار، ومخلّفات الانهيار الحضاري بوعود

---

* يندرج طه عبد الرحمن ضمن الأسماء الفكرية المغربية/ العربية التي أسهمت في إعادة تشكيل أفق الدرس الفلسفي العربي المعاصر، لا بوصفه مجرد باحث في الفلسفة أو شارحاً لمقولاتها، بل باعتباره مشروعاً فكرياً انشغل بإعادة مساءلة العقل العربي الإسلامي من داخل أسئلته المعرفية والأخلاقية واللسانية. وُلد سنة 1944م في المغرب، وتدرّج في مساره التعليمي بين الجديدة والدار البيضاء ثم الرباط، قبل أن يواصل تكوينه الجامعي العالي في فرنسا، حيث نال من جامعة السوربون سنة 1972م شهادة الدكتوراه بأطروحة في فلسفة اللغة عنوانها: رسالة في البنى اللغوية لمبحث الوجود، ثم تُوّج مساره العلمي بالحصول على دكتوراه الدولة سنة 1985م بأطروحة موسومة برسالة في منطق الاستدلال الحجاجي والطبيعي ونماذجه، كشفت عن الملامح المؤسسة لمشروعه الفلسفي، القائم على وصل التفكير المنطقي بالفعل الحجاجي، وردّ المعرفة إلى شروطها التداولية والأخلاقية، بما يجعل من الفلسفة عنده ممارسة نقدية تتجاوز حدود التنظير المجرد إلى مساءلة أسس الحداثة، وإعادة بناء العلاقة بين العقل واللغة والدين والعمل.

التحديث المتسارع. وقد تهيكل بحثنا في محاور أربعة تصدرها التمهيد الذي سلَّطنا فيه الضوء على السياق التاريخي والفكري الإسلامي المعاصر لطه عبد الرحمن، ثم مبحث أول تكلمنا فيه عن الأسس النظرية والفلسفية للنقد النسقي عند طه عبد الرحمن؛ ثم مبحث ثانٍ؛ تناول الجانب التطبيقي للنقد النسقي في مشروع طه عبد الرحمن الفكري الجديد، وختمنا البحث بخاتمة ضمَّت أبرز النتائج العلمية التي توصل إليها البحث .

التمهيد

السياق التاريخي والفكري الإسلامي المعاصر لطه عبد الرحمن

شهد العقل الإسلامي المعاصر منذ مطلع القرن العشرين حالةً من الاضطراب الإبستيمولوجي العميق؛ إذ وجد نفسه أمام ضغط مزدوج: من جهة إرث التراث الكلاسيكي المتراكم على مدى أربعة عشر قرناً، ومن جهة أخرى موجات الحداثة الغربية التي فرضت نفسها بالقوة الاستعمارية ثم بالإغراء التحديثي. وقد أفرز هذا الضغط المزدوج تيارات فكرية متعددة تتراوح بين الانغلاق الانعزالي والانفتاح الاستيعابي الأعمى[1].

لم يكن الفكر الإسلامي المعاصر في القرن الماضي حقلاً متجانساً؛ بل كان ساحة اشتباك فكري بين تيارات متعددة ومتنازعة: فثمة السلفية الإحيائية التي تعود إلى منابع النص الأولى وترفض أشكال التلفيق، وثمة التحديثية الليبرالية الساعية إلى دمج قيم التنوير الغربي في البنية الإسلامية، وثمة الإسلام السياسي الذي يسعى إلى إعادة بناء الدولة انطلاقاً من مرجعية دينية، فضلاً عن التيار التوفيقي الذي يبحث عن مسالك الجمع بين الموروث والمستحدث دون حسم إبستيمولوجي واضح[2].

ويمكننا تحديد ثلاث مراحل متمايزة في مسيرة طه عبد الرحمن الفكرية: المرحلة الأولى (1970–1990م) مرحلة التأسيس المنطقي اللغوي، التي أرسى فيها القواعد المنهجية من خلال دراسات في المنطق الصوري ومنطق الحجاج ونظرية الاستدلال. ثم المرحلة الثانية (1990–2005م) مرحلة تجديد المنهج والنقد النسقي، وفيها كتب (تجديد المنهج في تقويم التراث-1994م) و(اللسان والميزان-1998م) و(فقه الفلسفة- 1995-1999م)، وهي الأعمال التي تبلور فيها مفهوم النقد النسقي بصورة جلية[3].

أما المرحلة الثالثة (2005م) فهي مرحلة الحداثة الإسلامية والأخلاق الائتمانية، التي أصدر فيها (روح الحداثة-2006م) و(روح الدين- 2012م) و(سؤال العمل- 2012م) و(بؤس الدهرانية-2014م)، وتتسم هذه المرحلة بالنضج الفلسفي الكامل وبالانفتاح على الإشكاليات الكبرى للعالم الإسلامي في علاقته بالحداثة والأخلاق والسياسة[4].

في هذا السياق المتشعّب نجد أن طه عبد الرحمن شكَّل امتداداً نقدياً وتجاوزاً في آنٍ واحد لتلك التيارات. فهو لم يقبل بالثنائية القاصرة بين (الأصالة والمعاصرة) التي سكنت خطاب جيل السبعينيات

---

(1) ينظر: طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-بيروت، 1994م:45–48.

(2) للاستزادة في هذا الميدان ولا سيما قضايا الفكر وما يتعلق بها من مناهج وتيارات متعددة، انظر كتاب: قضايا الفكر الاسلامي المعاصر، محمد سيد أحمد المسير: .3 ومابعها.

(3) ينظر: طه عبد الرحمن، روح الدين: من ضيق العلمانية إلى سعة الائتمانية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-بيروت، 2012م:9.

(4) ينظر: روح الدين: من ضيق العلمانية إلى سعة الائتمانية: 9.

والثمانينيات[1]، بقدر ما أقدم على اختراقها من الداخل عبر تأسيس منهجية نقدية متكاملة تُعيد صياغة العلاقة مع التراث وتُجدد العقل الإسلامي من دون أن تتنازل عن خصوصيته.

ومن الجدير بالذكر هنا أن طه عبد الرحمن درس الفلسفة في باريس، وتخصص في منطق اللغة وفلسفة الأخلاق، ومنح دكتوراه الدولة من جامعة السوربون سنة 1972م برسالة في المنطق الصوري والمنطق غير الصوري. وحين عاد إلى المغرب حاملاً ترسانة من المناهج الفلسفية الغربية - ولا سيما التداولية التواصلية لهابرماس، والفلسفة التحليلية للغة، ونظرية استيعاء الفهم - لم يجعلها وسيلة للتغريب، وإنما حوّلها إلى أدوات نقد وتفعيل للموروث الإسلامي ذاته[2].

والملمح المنهجي الذي نجده حاضراً في مسيرة طه عبد الرحمن أنه لم يُفصل بين الفلسفة وعلوم الشريعة؛ فقد كان في الوقت ذاته عالماً متمكناً في الأصول والمنطق الكلاسيكي الإسلامي[3]، مما أتاح له أن يُجري مقاربات مغايرة للمقاربة الانتقائية السطحية التي طبعت كثيراً من المحاولات السابقة.

المبحث الأول

الأسس النظرية والفلسفية للنقد النسقي عند طه عبد الرحمن

يُعدّ النقد النسقي الدعامة المنهجية الكبرى في مشروع طه عبد الرحمن الفكري؛ إذ لا يعني مجرد ملاحظة الأخطاء أو رصد التناقضات في منظومة فكرية ما، بل يعني الكشف عن البنية العميقة التي تتحكم في طريقة اشتغال العقل وإنتاجه للمفاهيم والأحكام. ويتميز هذا النقد بأنه نسقي، أي يرى في الظاهرة الفكرية منظومة متكاملة من العلاقات والشروط الضمنية، لا مجرد عناصر متفرقة قابلة للاستبدال أو الإلغاء. النسقية أو النسق هو منظومة معرفية، أو تركيب (منهجي) صادر عن تصور مذهبي ما، أو رؤية فلسفية ما، وهو عبارة عن بنية محكمة، تتكون من مجموعة من الجزئيات المتكاملة، التي تدور بشكل منظم حول محور واحد، فتشكل بذلك كليـة واحدة هي النسق[4].

أولاً: مفهوم النقد النسقي: التعريف والخصائص:

يرجع النسق في أصله اللغوي إلى جذره المعجمي الممثل بمادة (نَسَقَ) التي لها معان متعدد تداولتها معاجم اللغة على اختلاف مشاربها فجاء عند الخليل بن أحمد الفراهيدي مثلاً في قوله عن النسق هو: "في كل شيء ما كان على نظام عام في الأشياء. ونَسَقْتُه نَسَقاً ونَسَّقْتُهُ تنسيقاً، ونقول انْتَسَقَتْ هذه

---

(1) يقصد بتلك التيارات التي تصدت لدراسة التراث الديني / العلمي العربي إذ سعى طه عبد الرحمن لتفكيك التيارات الفكرية السابقة (مثل التيارات الماركسية أو الليبرالية العربية في السبعينيات والثمانينيات) التي تعاملت مع هذا التراث بنزعة انتقائية أو تاريخية بحتة وأهملت أبعاده الروحية، وهذه النزعة التفكيكية هي الميزة الغالبة في كتابات طه عبد الرحمن.

(2) ينظر: عبد الرزاق بلعقروز، تحولات الفكر الفلسفي المعاصر: أسئلة المفهوم والمعنى أو التواصل، الجزائر، منشورات الاختلاف، ط1، 2009م: 29؛ للاستزادة ينظر: بعض كتب طه عبد الرحمن، فضلاً عن بعض المواقع الموثوقة على الإنترنيت، منها: موقع: مجلة الاصلاح التحرير مجلة الاكترونية، https://alislahmag.com. وموقع منار الإسلام للأبحاث والدراسات، احمد الفراك، 2023م.

(3) ينظر: طـه عبد الرحمـن، سـؤال الاخـلاق: مسـاهمة في النقـد الأخلاقـي للحداثـة الغربيـة، بيـروت: الشـبكة العربيـة للابحـاث والنـشر، 2000م:159-167.

(4) ينظر: أبجديات البحث في العلوم: محاولة في التأصيل المنهجي، فريد الأنصاري: 190.

الأشياء بعضها إلى بعض أي تَنَسَّقَتْ"[1]. تناسقاً متتابعاً ومنتظماً. وأما دلالة النسق عند ابن فارس فمأخوذة من "النون والسين والقاف أصلٌ صحيح يدلُّ على تتابُع في الشَّيء. وكلامٌ نَسَقٌ : جاء على نظامٍ واحد قد عُطِف بعضُه على بعض. وأصله قولهم: ثَغْرٌ نَسَق، إذا كانت الأسنانُ متناسقةً متساوية، وخَرَزٌ نَسق: منظَّم"[2]. وهذا يعني النسق في كل معانيه اللغوية يدل على الانتظام والتتابع المنظم والتناسق بشكل عام.

ويعرف النسق أيضاً بأنه "نظام ينطوي على أفراد فاعلين تتحدد علاقاتهم بمواقفهم وأدوارهم التي تنبع من الرموز المشتركة والمقررة ثقافياً في إطار هذا النسق، وعلى نحو يغدو معه مفهوم النسق الاجتماعي أوسع من مفهوم البناء الاجتماعي"[3].

والنسق كما يعرفه فوكو "مجموعة من العلاقات التي تثبت على استبعاد الخارج على النص عن طريق إخفائه وتلوينه وتحويله إلى داخل" [4].

ويصف الغذامي النسق بأنه "دلالة مضمرة ليست مصنوعة من مؤلف، ولكنها منكتبة ومنغرسة في الخطاب، مؤلفتها الثقافة، ومستهلكوها جماهير اللغة من كتاب وقراء، يتساوى في ذلك الصغير مع الكبير والنساء مع الرجال والمهمش مع المسوّد"[5].

ومن هنا نجد أن مفهوم النسق قد اكتسب أهميته في النقد الحديث لكونه أداة فلسفية تكشف البنى العميقة الكامنة خلف ظاهر النص، وتفضح ما تنطوي عليه الخطابات من أنساق الهيمنة والإقصاء والتمركز الثقافي، بما يجعل القراءة النقدية انتقالاً من تفسير المعنى المباشر إلى مساءلة الشروط الثقافية والمعرفية التي أنتجته. ومن ثمّ غدا هذا التنظيم المفهومي والإجرائي لجزئيات الخطاب النقدي باعثاً على تشكّل أنساق نقدية متعاقبة، لكلٍّ منها بنيته المعرفية الخاصة، وأفقه الإجرائي الذي يميّزه عن غيره في فضاء الاشتغال النصّي المتشعّب[6]، وهَذِهِ الصفة أكسبت النَّقد حركِيَّة تطويريَّة لا تعرف الثَّبات، فهو يتماهى مع كلِّ ميدان يتَّصل به لغرض" الفحص والتَّدقيق بهدف بيان ما في الأثر من عيوب أو محاسن" [7]. وبهذا المعنى لم يعد النقد سلسلةً من القراءات المتجاورة، بل صار حقلاً منتجاً لآلياته نسقية متعاقبة، حاملاً في داخله جيناته المنهجية التي تمنحه خصوصيته النقدية والنَّقد في اصطلاحه هو" علم تفسير النُّصُوص الأَدَبِيَّة وتحليلها وتصنيفها وتقويمها والحكم عليها حسب الأُصول والقواعد للمذهب النَّقدِيّ الَّذِي ينتمي إليه النَّاقد"[8]، وتحدد زاوية نظره إلى النص، وطبيعة مساءلته، وحدود انفتاحه على المرجعيات الثقافية والفلسفية الكامنة وراءه. ومن بين هذه التشكّلات المعرفية يبرز مفهوم النسق بوصفه أحد المفاهيم المركزية التي أتاحت للنقد الحديث أن يتجاوز ظاهر النص إلى بنياته العميقة، وأن يكشف ما تضمره الخطابات من أنظمة ثقافية ومعرفية تتحكم في إنتاج المعنى وتوجيهه.

ويُعدّ النقد النسقي من المقاربات النقدية الحديثة التي انشغلت بتجاوز القراءة النصية المغلقة إلى قراءةٍ تكشف البنى المضمرة التي تتحكم في إنتاج الخطاب وتوجيه دلالاته، والنقد النسقي، كما يتجلّى في هذا التنظير" يصطفي النسق بوصفه عنصراً مركزياً في الحضارة والمعرفة والثقافة والسياسة والمجتمع؛ إذ يتسم النسق من حيث هو نظام بالمخاتلة، واستثمار الجمالي والمجازي ليمرر جدلياته ومضمراته التي لا تتكشف إلا بالقراءة الفاحصة Critique Reading، ولا يمكن استبارها إلا بتكوين جهاز مفاهيمي

---

(1) كتاب العين: لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي: 5/ 81 .
(2) معجم مقاييس اللغة: لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا: 987 .
(3) عصر البنيوية: إديث كريزويل: تر: جابر عصفور: 411
(4) القراءة النسقية سلطة البنية ووهم المحايثة: أحمد يوسف: 204
(5) النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية: 79
(6) ينظر: عبد السلام المسدي، ما وراء اللغة(بحث في الخلفيات المعرفية): 140-141.
(7) المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، عبد المنعم الحفني:895.
(8) معجم المصطلحات الأدبيَّة: عربي- انجليزي، حسين نصار:338.

ومعرفي متكامل"[1]. وبهذا المفهوم لا يُنظر إلى النص بوصفه بنيةً جماليةً مكتفيةً بذاتها، بل بوصفه مجالاً تتقاطع فيه أنظمة الثقافة والمعرفة والسلطة، وتتسرّب عبره تمثلات الجماعة وقيمها وآلياتها الرمزية. ومن هذا المنظور يغدو " التعامل مع النص الأدبي من منظور النقد النسقي يعني وضع ذلك النص داخل سياقه السياسي من ناحية، وداخل سياق القارئ أو الناقد من ناحية أخرى"[2].

أي أن النقد النسقي يتحول إلى فعل تأويلي يتقصّى ما وراء البنية الظاهرة للنص ساعياً إلى تفكيك الأنساق التي تستبطنها اللغة، والكشف عن المرجعيات الثقافية التي تسهم في تشكيل الرؤية وبناء المعنى، بما يجعل القراءة النقدية انتقالاً من معاينة النص في حدوده الأسلوبية والجمالية إلى مساءلة الشروط الحضارية والفكرية التي أنتجته وأضمرت فيه أنساقها المهيمنة.

يرتبط النقد ببعده النسقي عند طه عبد الرحمن بمفهوم (التداولية النقدية)، وهو مفهوم يجمع بين الفلسفة التحليلية للغة والنقد في محاولة تأسيسية فريدة للخروج من مأزق التبعية المعرفية والأخلاقية، مقدماً بديلاً عملياً يقوم على (التأصيل والإبداع)[3]، لإن" أحد أهداف هذا النقد النسقي الذي دائب عليه طه عبد الرحمن هو استكشاف الوظائف الأيديولوجية للنصوص في مراحل تاريخية متنوعة وفي ممارسات ثقافية متباينة"[4]، تلك الممارسة التي وجهها عبد الرحمن نحو ما يسمى (المجال التداولي الإسلامي) فقد سعى لـــ" إنشاء نظرية جديدة لتقويم التراث نظرية تكاملية يتم بمقتضاها تقديم منهجا جديدا في تقويم الثراث، منهج ينبثق من المجال التداولي الإسلامي عقيدة وفكراً ولغة"،[5] أي أن التداولية لديه ليست مجرد دراسة الاستخدام اللغوي في السياقات المختلفة، بل هي ممارسة نقدية تُعيد فحص المسلّمات والمفاهيم السائدة في ضوء شروط صلاحيتها ومدى خدمتها لأغراض الفعل الصحيح.

ويتأسس النقد النسقي كما تبين لنا وفي صورته الأكثر نضجاً في كتابَي (تجديد المنهج في تقويم التراث) (1994م)[6]، و(سؤال العمل: بحث عن الأصول العملية في الفكر والعلم-(2012م) على ثلاثة مبادئ هيكلية[7]: أولها مبدأ التكامل المنطقي، الذي يشترط أن تكون المفاهيم المستخدمة في أي منظومة فكرية متسقة مع بعضها ومع غاياتها العملية. وثانيها مبدأ الانسجام التداولي، أي أن تكون الملفوظات والأقوال الفكرية قابلة للتحقق في ممارسات حقيقية لا تبقى حبيسة الخطاب النظري المجرد. وثالثها مبدأ المسؤولية الأخلاقية، الذي يربط صحة المنظومة الفكرية بمدى إسهامها في بناء الفاعل الأخلاقي المتكامل.

ثانياً: نقد العقل العربي ونقد النقد:

لنفهم الموقع الخاص للنقد النسقي عند طه عبد الرحمن أو نقد الذي يميزه عما سواه، لا بد من استحضار نقده الصريح لمشروع الجابري في (نقد العقل العربي). فقد رأى طه عبد الرحمن أن الجابري وقع في ما يسمى (القولبة الجاهزة) إذ نقل مناهج الأبستمولوجيا الغربية (المقاربة البنيوية والتحليل الأيديولوجي) ليفرضها على التراث الإسلامي من الخارج، دون أن يعيش التجربة الداخلية لهذا التراث ودون أن ينطلق من افتراضاته المعرفية الخاصة[8].

---

(1) يوسف محمود عليمات، النقد النسقي (تمثيلات النسق في الشعر الجاهلي): 9.
(2) النقد النسقي (تمثيلات النسق في الشعر الجاهلي): 9.
(3) ينظر: الاستقلال الفلسفي والتجديد عند طه عبد الرحمن، نور الدين بن قدور، مجلة إسلامية المعرفة، السنة الرابعة والعشرون،ع ٩٣، الأردن، صيف ٢٠١٨م: 121-122.
(4) النقد النسقي (تمثيلات النسق في الشعر الجاهلي): 10.
(5) طه عبد الرحمن ، حوارات من أجل المستقبل:29-30.
(6) للاستزادة في هذا الميدان ينظر: تجديد المنهج في تقويم التراث: 1994م.
(7) طه عبد الرحمن، سؤال العمل: بحث عن الأصول العملية في الفكر والعلم، المركز الثقافي العربي، 2012م.
(8) للاستزادة ينظر: محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1986م؛ وكتابه تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1984م.

ويرى طه عبد الرحمن أن هذه المقاربة تنتهي إلى نقد غير نسقي؛ لأنها تقيس التراث بمعايير لم تنبثق من منطق التراث ذاته، وبالتالي تُنتج حكماً خارجياً قد يكون دقيقاً في توصيف التراث، لكنه يبقى عاجزاً عن تجديده من الداخل[1]. وهنا يكمن الفارق الجوهري في رأينا: فالنقد عند طه عبد الرحمن ليس نقداً من الخارج بل نقد يتمثل المنطق الداخلي للمنظومة ثم يكشف اختلالاتها من داخلها وهو قائم على بعد نسقي واضح الملامح.

يُدخل طه عبد الرحمن مفهوم (الحقل التداولي الإسلامي) الذي يعني المجال الرمزي والمفاهيمي والروحي الذي تشتغل داخله الممارسات الفكرية الإسلامية وتستمد منه معانيها ودلالاتها. ويتمايز هذا الحقل عن الحقل التداولي الغربي بخصائص بنيوية جوهرية: فهو حقل مُتّسع على أربعة عشر قرناً، موحَّد في مرجعياته العليا رغم تنوّعه الداخلي الهائل، ومُفعَم بالبعد الروحي الذي يُشكّل شرطاً لفهم كثير من مفاهيمه الكبرى[2].

ويُمكننا الاستناد هنا إلى ما أشار إليه عبد الرزاق بلعقروز من أن مفهوم الحقل التداولي يُمثّل ابتكاراً أصيلاً في الفلسفة العربية المعاصرة، لكونه يُتيح للمفكر الإسلامي ممارسةَ النقد من داخل مرجعيته الخاصة دون أن يُحاكَم بمعايير حقل تداولي آخر[3].

إذا كان محمد عابد الجابري قد انكبّ على نقد البنية العقلية للتراث من منظور تحليلي أيديولوجي انطلق فيه من أبستمولوجيا الفكر العلمي الغربي (غاستون باشلار وآخرون) كما هو معلوم، فإننا نجد طه عبد الرحمن آثر نقد الممارسة العقلية ذاتها[4]: أي الطريقة التي نتعامل بها مع المفاهيم والأحكام في التداول اليومي والعلمي، وهو ما يجعل نقده نسقياً بامتياز.

أما الفيلسوف المصري حسن حنفي فنجده قد اشتغل في مشروعه (اليسار الإسلامي) على إعادة توجيه التراث نحو العمل الاجتماعي والثوري، والغاية النهائية من (التراث والتجديد) لديه تكمن في توحيد العلوم كلها في علم واحد يكون مرادفا للحضارة نفسها. فالعلوم كلها تحاول فهم الوحي وتحويله إلى نظرية كما هو الحال في الكلام والفلسفة أو إلى منهج كما هو الحال في الأصول والتصوف، ولكن الغاية النهائية هي تحويل الوحي ذاته إلى نظرية أو إلى علم أو إلى منهج أو إن شئنا إلى منهاج، أي إعادة تدوير وتكرار على وفق معايير جاهزة سلفاً[5]، في حين اختار طه عبد الرحمن توجيه التراث نحو التأسيس الأخلاقي للذات والمجتمع وفق آليات التقويم والتجديد الداخلي.

وبذلك يتمايز طه عبد الرحمن بكونه فيلسوفاً نسقياً بالمعنى الدقيق: فهو يبني منظومته الفكرية على أسس منطقية وتداولية متماسكة، تُخضع التراثَ والحداثةَ معاً لمعيار العقل الأخلاقي العملي، بدل من الانتصار الأعمى لأحدهما على حساب الآخر.[6]

واجه طه عبد الرحمن دعاة العقلانية المجردة بالنقد والاعتراض والتقويم في ضوء مقاربة تداولية منطقية واستدلالية داخلية.

---

[1] ينظر: جلول مقورة ، تهافت الانموذج التجزيئي للتراث: طه عبد الرحمان قارنا للجابري جامعة مسيلة: جامعة محمد بوضياف بالمسيلة: مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، ع :11، ديسمبر 2016م: 46 48.

[2] ينظر: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي: 98-102.

[3] ينظر: عبد الرزاق بلعقروز، تحولات الفكر الفلسفي المعاصر: أسئلة المفهوم والمعنى أو التواصل:62.

[4] ينظر: محمد عابد الجابري، التراث والحداثة. دراسات ومناقشات. مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت، ط1، 1991م: 15-16.

[5] حسن حنفي ، التراث والتجديد: 172.

[6] ينظر: طه عبد الرحمن، روح الحداثة: المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية: 31.

يقترح طه عبد الرحمن على قارئه بديلاً منهجياً يعمل بمقتضى التداولية النقدية وهي تداولية تجمع ثلاثة مستويات تحليلية متشابكة: المستوى اللغوي الذي يدرس بنية الملفوظات وعلاقاتها الاستدلالية؛ والمستوى التداولي الذي يفحص الظروف والسياقات التي تُستخدم فيها هذه الملفوظات في الممارسة الفعلية؛ والمستوى الأخلاقي الذي يقوّم مدى توافق هذه الممارسات مع الغايات الأخلاقية للفاعل والمجتمع[1].

ولا تنفصل التداولية النقدية عند طه عبد الرحمن عن تصوره للغة بوصفها فعلاً إنجازياً لا أداةً وصفية محايدة. فالقول الفلسفي لا يصف الواقع من بعيد بل يُغيّر المواقف ويُعيد تشكيل الذات والمجتمع[2]. ومن ثَمّ فإن أي نقد للمنظومات الفكرية ينبغي أن يُقيّمها بناءً على ما تُنجزه فعلياً لا بناءً على ما تدّعيه نظرياً.

ونجد من أكثر المفاهيم أصالةً في مشروع طه عبد الرحمن مفهومُ (المزاوجة) الذي يعني التفاعل المنتج بين التراث والحداثة لا الجمع الانتقائي السطحي. فالمزاوجة ليست تلفيقاً ولا توفيقاً إجبارياً[3]؛ بل هي حوار نقدي يخضع فيه الموروث للاختبار التداولي، فيُستبقى ما يزيد قدرة الإنسان على الفعل الصحيح ويُراجَع ما يُعيقها.

كما نجده مبدأ (المزاوجة) بوصفه البديل المنهجي لثنائية الرفض والاستسلام في التعامل مع الفكر الغربي. والمزاوجة تعني التفاعل النقدي المنتج الذي يأخذ من الآخر ما يُعزّز القدرةَ الذاتية الإبداعية، ويرفض ما يُعيقها، وذلك بناءً على معيار الفاعلية الأخلاقية للحقل التداولي المستقبِل[4]، وبذلك تتجاوز المزاوجةُ التلفيقَ السطحي والرفضَ الانغلاقي على حدٍّ سواء.

ويشترط طه عبد الرحمن لكي تكون المزاوجة ناجحة أن تتم وفق ما يسميه شرط الاستيعاب، أي أن يستوعب الفكر الإسلامي المنجزات الحداثية ويتمثّلها بعمق، لا أن يرفضها جملةً وتفصيلاً، ولا أن يقبلها قبولاً تسليمياً أعمى[5]. وهنا يبرز الفارق بين المزاوجة النقدية والتغريب الذي يرفضه طه عبد الرحمن أشد الرفض.

ثالثاً: نقد العقل التجزيئي وبناء العقل الكلي:

يُميّز طه عبد الرحمن بين ما يسميه (العقل المجرد) و(العقل المسدّد) و(العقل المؤيَّد). فالعقل المجرد هو العقل في طور الاستدلال النظري الخالص، مجرداً من الالتزامات الروحية والأخلاقية. والعقل المسدَّد هو العقل الذي يسترشد بالوحي في انتقاء مساراته دون أن يكون مقيداً بحرفيته. أما العقل المؤيَّد فهو أعلى المراتب وأكملها: عقل يتخلّق بأخلاق الوحي ويتحرك داخل آفاقه الروحية والمعرفية[6].

هذا التمييز ليس مجرد تصنيف وصفي كما يتضح لنا، بل هو نقد ذو مسارٍ نسقي بامتياز للطريقة التي أصاب بها العقل العربي المعاصر دوار الانفصام: فأما أن يُغرق في التجريد النظري المجرد عن أي التزام قيمي، وأما أن يسقط في التقليد النصي الحرفي المجرّد عن العقل[7]. والنقد النسقي عند طه عبد الرحمن هو الوسيلة الكفيلة بتشخيص هذا الانفصام وإيجاد المسالك نحو تجاوزه.

---

(1) ينظر: تجديد المنهج في تقويم التراث: 247-250.
(2) ينظر: طه عبد الرحمن، فقه الفلسفة (ج2: القول الفلسفي):12-13.
(3) سعى عبد الرحمن في أغلب مؤلفاته للتجديد والابتكار دونما الالغاء للأصل الذي تنبثق منه فهو يستثمر هذا المبدأ بذكاءٍ شديد في توليد مصطلحاته؛ للاستزادة ينظر: طه عبد الرحمن، العمل الديني وتجديد العقل:162 وما بعدها.
(4) روح الحداثة: المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية: 44.
(5) ينظر: سؤال الاخلاق: مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية:15-14
(6) المصدر نفسه: 76.
(7) ينظر: روح الحداثة: المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية: 65-71.

تتمحور الإشكاليات الكبرى للفكر الإسلامي المعاصر حول محورين متشابكين: الأول أبستمولوجي يتعلق بالعلاقة مع مناهج العلم الحديث ومصادر المعرفة، والثاني قيمي أخلاقي يتعلق بمعايير الفعل الصحيح وبناء الذات في عالم متغير. وقد استطاع طه عبد الرحمن - بخلاف كثير من معاصريه - أن يحتضن هذين المحورين فيما يمكن أن نسميه مشروع فكري موحّد[1]، عماده نقد منهجي للمقولات المتداولة في الثقافة الإسلامية والعربية معاً، وهو ما نتقصاه في اشتغالاً على منظومته الفكرية.

ومن أبرز ما ميّز سياق طه عبد الرحمن الفكري: أنه جاء في مرحلة ما بعد فشل مشاريع التحديث القسري (المشاريع الاشتراكية وغيرها)، وما رافقها من ردة فعل أصولية، ثم مرحلة ما بعد الحرب الباردة وسقوط الرهانات الأيديولوجية الكبرى، مما أفسح المجال لمساءلة أعمق وأكثر جذرية لمفهومَي الهوية والعقل[2].

كذلك ينبغي لنا الإشارة إلى البعد المغاربي في تكوين طه عبد الرحمن؛ فالفضاء المغربي يتميز بثراء تاريخي في التفاعل مع التراثات المتعددة - الأمازيغية والأندلسية والصوفية والعربية والأفريقية - فضلاً عن حضور فرنسي طويل وقد شكّل هذا الفضاء حاضنةً خصبة لنشوء مشروع فكري قادر على الانفتاح النقدي دون الذوبان والتبعية.

كما يُعيد طه عبد الرحمن صياغة العلاقة مع التراث عبر منطق الاتباع الإبداعي، وهو يعني الاتباع الذي لا يكتفي بإعادة الإنتاج الحرفي للنماذج السابقة، بل يُعيد تأسيسها بطريقة تُظهر حيويتها وقدرتها على مواجهة التحديات المستجدة[3]. والفارق بين هذا وبين التجديد التلفيقي كما نظن أن الاتباع الإبداعي ينطلق من الداخل: يستوعب منطق النموذج الموروث، ثم يُبدع فيه ومن خلاله. ويُجسّد هذا المبدأ في تحليلاته للتراث الفقهي وعلوم الأصول والتراث الصوفي؛ إذ لا يعمل على نقل هذه العلوم كما هي، بل يُعيد صياغتها في منظومة مفاهيمية معاصرة تحافظ على روحها وتُيسّر توظيفها في السياقات الفكرية والحضارية الراهنة؛ والفارق الجوهري بينه وبين التقليد الحرفي أن التقليد يرى في النموذج الكلاسيكي مرجعاً مكتملاً للتكرار، في حين يرى الاتباع الإبداعي فيه بذرةً إبداعية لم تُستنفَد[4]. ويعني به استيعاب المنطق الداخلي للنماذج الكلاسيكية الموروثة وقراءتها في ضوء غاياتها الحقيقية لا حرفيتها الشكلية، ثم الإبداع داخل هذا المنطق ومن خلاله وهذا الذي نجده حاضراً في تنظيراته المختلفة.

ويغدو هذا التصور كما نرى إعلاناً عن حداثةٍ مؤصَّلة لا ترى في التراث ركاماً ماضوياً، بل إمكاناً معرفياً مفتوحاً على الاستئناف والتجاوز. ومن ثمّ فإن فضل طه عبد الرحمن لا يتمثل في مجرد الدفاع عن الموروث، بل في تحريره من القراءة التقديسية الجامدة، وردّه إلى أفق الفعل والإنتاج، بحيث يغدو التراث قوةً اقتراحية لا مادةً محفوظة. وبهذا المعنى، فإن الاتباع الإبداعي عنده ليس آليةً للمصالحة مع الماضي فحسب، بل استراتيجية نقدية لإعادة بناء الحاضر من داخل شروطه الحضارية والروحية.

المبحث الثاني

الجانب التطبيقي للنقد النسقي في مشروع طه عبد الرحمن الفكري

لا يكتفي طه عبد الرحمن بتأسيس منظومة نقدية نظرية – كما بيّنَّا سابقاً- بل يُعقبها بتطبيقات معمّقة في ميادين متعددة. وهذه التطبيقات هي التي تكشف مدى تماسك النقد النسقي وقدرته على اختراق جوانب متباينة من الحياة الفكرية والروحية الإسلامية.

---

[1] ينظر: سؤال الاخلاق: مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية: 103.
[2] ينظر: عبد السلام بنعبد العالي، أسس الفكر الفلسفي المعاصر: مساءلة الهوية والاختلاف:31.
[3] ينظر: الحداثة الأخلاقية في الفكر الإسلامي: مشروع طه عبد الرحمن للتجديد الحضاري، عبدالرحمن حسنيوي:19-22.
[4] ينظر: تجديد المنهج في تقويم التراث:159.

فهذا المشروع الذي يريده لنا لا يظلّ حبيس التجريد المفهومي، بل ينتقل إلى مستوى الممارسة النقدية كما تبين لنا تلك الممارسة التي تختبر صلاحية المفاهيم داخل البنى التراثية والمعرفية الحيّة. ومن هنا تكتسب تطبيقاته أهميتها؛ لأنها تُظهر كيف يتحول النقد النسقي من أداة تفسير إلى آلية فحص وإعادة بناء، تستنطق الأنساق الكامنة في الخطاب الإسلامي وتكشف حدودها وإمكاناتها. لذلك فإن الوقوف عند هذا الجانب التطبيقي لا يراد به مجرد رصد أمثلة تطبيقية، بل الكشف عن الكيفية التي يشتغل بها النسق لدى كاتبنا حين يواجه موضوعاته في الفقه والتصوف والأصول والفكر الإسلامي عامة.

أولاً: النقد النسقي في ميدان الأخلاق والفلسفة اللغوية:

يُعدّ الميدان الأخلاقي أكثر الميادين التي اشتغل عليها طه عبد الرحمن بعمق ومثابرة. ففي كتابه (العمل الديني وتجديد العقل1989م)[1]، ثم (روح الدين: من ضيق العلمانية إلى سعة الائتمانية - 2012م)[2]، يُطور نقداً نسقياً للتصور الغربي للأخلاق من خلال تبيان ما يمكن أن نسميه (القصور الائتماني) في هذه الأطر الأخلاقية. ويمثّل الميدان الأخلاقي أعمق ميادين نقده الخاص وأكثرها شمولاً إذ يُطبّق معطيات النقد النسقي على المنظومات الأخلاقية الغربية الكبرى- الكانطية والنفعية وأخلاق العقد الاجتماعي- ليكشف ما يُسميه (القصور الائتماني) المشترك فيها[3].

ووجدناه يبدأ بالكانطية: فبينما بنى كانط أخلاقه على مبدأ الاستقلالية الكونية القائل بأن الإنسان يُشرّع لنفسه وفق العقل الخالص، يرى طه عبد الرحمن أن هذه الاستقلالية تُفضي إلى (الإنسان المُفرَد) المنقطع عن علاقاته الائتمانية العميقة. وهذا القصور البنيوي لا يُدرَك إلا بالنقد النسقي الذي يكشف المسلّمة الضمنية الكامنة في المنظومة الكانطية[4].

في مقابل ذلك، يُقدّم طه عبد الرحمن لنا في مفهوم (الائتمانية) أُطراً أخلاقياً بديلاً مستوحىً من رؤية الوجود الإسلامية: فالإنسان في هذه الرؤية مؤتمَن على نفسه وعلى الآخر وعلى الطبيعة، لا مالكاً استقلالياً لها. ومن ثَمّ يكون الفعل الأخلاقي انبعاثاً من موقف وجودي عميق، لا مجرد تطبيق لقاعدة كلية مُجرَّدة. ويُوضّح وليد الحارثي أن الائتمانية "تُقدّم الإنسان في بعده العلائقي والوجودي الكامل بدلاً من اختزاله في كيانه الفردي المستقل"[5].

وقد أبدى الباحث يوسف بن عدي تحفظاً منهجياً مشروعاً - نؤيده فيه- حول مدى قدرة مفهوم الائتمانية على الترجمة إلى منظومة أخلاقية إجرائية تشتغل في الفضاء العام المتعدد الأديان والثقافات؛ وهو اعتراض يكشف توتراً داخلياً حقيقياً في مشروع طه عبد الرحمن يستحق الدراسة والتأمل[6] وينطلق هذا التحفظ في رأينا من منظورٍ منهجيٍّ يسعى إلى اختبار قابلية المفهوم للتطبيق العملي، لا إلى نفي قيمته النظرية أو التقليل من أهميته الفلسفية.

كما نجد أن الأخلاق الغربية الحديثة في تصوره تُفصل الفعل عن صاحبه: أي تُقيّم الأفعال في ذاتها دون اعتبار للفاعل وبنيته الداخلية وعلاقته بغيره وبالمطلق. في حين أن الأخلاق الإسلامية - كما يُعيد طه

---

[1] ينظر: العمل الديني وتجديد العقل: 207 وما بعدها.
[2] ينظر: روح الدين: من ضيق العلمانية إلى سعة الائتمانية:27 وما بعدها.
[3] ينظر: المصدر نفسه: 119.
[4] ينظر: أمانويل كانط، تأسيس ميتافيزيقا الأحلاق، تر: عبد الغفار مكاوي: 78؛ طه عبد الرحمن، بؤس الدهرانية: النقد الائتماني لفصل الأخلاق عن الدين: 91.
[5] وليد الحارثي، الائتمانية الأخلاقية ومشروع العقل المؤيَّد، مجلة الفلسفة والعلوم الاجتماعية، تونس، مج 7، ع 1، 2019م: 48.
[6] ينظر: الفكر الإسلامي والمسألة الأخلاقية، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد 44، العدد 2، 2015م:112.

عبد الرحمن صياغتها - تنطلق من مفهوم (الأمانة) كمحور وجودي: فالإنسان مؤتمَن على نفسه وعلى الآخر وعلى الوجود ومن ثَمّ يكون الفعل الأخلاقي ليس تطبيقاً لقاعدة كلية بل انبعاثاً من بنية وجودية[1].

ويُطبّق نقده الخاص هنا بالكشف عن تهافت المقولة الغربية المتداولة التي تعتبر الأخلاق الدينية أخلاقاً غير عقلانية لأنها تعتمد على السلطة الإلهية؛ إذ يُظهر لنا طه عبد الرحمن أن هذه المقولة تفترض تصوراً محدداً للعقل (العقل الاستقلالي) وتصوراً محدداً للدين (السلطة الخارجية)، وكلا التصورين قابل للنقد والمراجعة.

وفي كتابه (اللسان والميزان أو التكوثر العقلي 1998م) نجده يُطبّق طه عبد الرحمن النقد النسقي على مناهج البحث اللغوي المعاصر، مُقدِّماً نقداً لما يسميه (التكوثر العقلي): أي الاتجاه السائد في الفلسفة المعاصرة نحو تكثير المفاهيم والمقولات دون اختبار صلاحيتها التداولية الفعلية، فتتكاثر المصطلحات وتتفرع التعريفات لكنها تُنتج في النهاية ضجيجاً معرفياً لا ينعكس على نمو الفهم الحقيقي[2]، وهذه المرحلة لديه حملة نواة تجديد المنهج والنقد النسقي، وقد تمخض عنها كتب عدة منها: كتاب (تجديد المنهج في تقويم التراث- 1994م) وكتاب اللسان والميزان (1998م) وفقه الفلسفة (1995م و1999م)، وهي الأعمال التي تبلور فيها مفهوم النقد النسقي بصورة جلية[3].

ويُميّز طه عبد الرحمن في هذا السياق بين العقل المنطقي والعقل اللغوي وبين اللسان بوصفه حاملاً لتجربة حضارية كاملة. ويرى أن الفلسفة الغربية، بما فيها الفلسفة التحليلية، تُجرّد اللغة من سياقها الحضاري وتتعامل معها كنظام رموز محايد[4]، في حين أن اللغة العربية كما هو معلوم لنا وللجميع تحمل في طياتها نسقاً كاملاً من الفهم والتأويل والتقييم يُجسّده علمُ النحو وعلوم البلاغة والبيان، مما يجعلها مادةً فلسفية ثرية تُضمر رؤيةً للعالم ينبغي استثمارها لا تجاهلها.

كما نجده يُعالج الفلسفة اللغوية بعمق استثنائي في (اللسان والميزان أو التكوثر العقلي) (1998م)، مُطبّقاً النقد النسقي على الظاهرة التي يُسميها (التكوثر العقلي): أي تكاثر المفاهيم والمصطلحات الفلسفية وتفرّعها دون أن يُقابل ذلك نموٌّ حقيقي في القدرة على الفعل الصحيح وحل الإشكاليات الفعلية. وهذه الظاهرة تُصيب - في تقديره - الفلسفة الغربية المعاصرة والفلسفة العربية على حدٍّ سواء[5].

ثالثاً: النقد النسقي في ميدان التصوف والروحانيات:

ربما كان أجرأ تطبيقات النقد النسقي عند طه عبد الرحمن تلك التي أعاد فيها الاعتبار للتراث الصوفي من منظور نقدي رصين، ففي (سؤال العمل)[6] وفي (روح الدين)، يُحاجج بأن الاختزال الحداثي للدين في وظيفته الاجتماعية أو في حدوده الطقسية الخارجية يُغفل بعداً جوهرياً: وهو البعد الروحي الباطني الذي يُشكّل عماد التجربة الدينية الحقيقية. أي يمكننا القول طه عبد الرحمن قدم هنا نقدية نسقية تُعيد الاعتبار للتراث الصوفي الإسلامي، الذي وقع ضحيةً لاختزالين متقابلين: رفض التيارات السلفية بوصفه بدعة، وتهميش التيارات التحديثية العلمانية بوصفه فولكلوراً أنثروبولوجياً. ويُفنّد طه عبد الرحمن

---

[1] ينظر: قراءة في تقييم الفيلسوف المغربي طه عبد الرحمن للأخلاق الغربية الحديثة من خلال كتابه سؤال الأخلاق، محمد غنام: 7-١٧.

[2] ينظر: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي: 25-26.

[3] ينظر: تجديد المنهج في تقويم التراث: 45–48.

[4] ينظر: طه عبد الرحمن، فقه الفلسفة(ج2: القول الفلسفي): 77.

[5] ينظر: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي: 143.

[6] ينظر: طه عبد الرحمن، سؤال العمل: بحث عن الأصول العملية في الفكر والعلم: 44-45؛ للاستزادة: روح الدين: من ضيق العلمانية إلى سعة الائتمانية، المركز الثقافي العربي، 2012م.

كلا الاختزالين نسقياً، كاشفاً أن التراث الصوفي يُضمر (حكمةً عملية) متكاملة لبناء الفاعل الأخلاقي في أبعاده الوجودية الكاملة[1].

أي أنه وكما تراءى لنا كان يُطبّق النقد النسقي بوعٍ مطلق على النزعات الاختزالية في كلا الاتجاهين: اتجاه التدين الظاهري الذي يُحصر الدين في الالتزام الشكلي، واتجاه العلمنة الذي يُفرغ الدين من محتواه الروحي ويجعله شأناً خاصاً لا أثر له في الفضاء العام. ويرى طه عبد الرحمن أن النقد النسقي للتراث الصوفي يكشف أن هذا التراث يمكن استثمارها في بناء فلسفة أخلاق متكاملة تتجاوز حدود العقل الاستقلالي.

ولم يكن ذلك اتجاهاً مقبولاً من الجميع؛ إذ أبدى بعض الباحثين تحفظاً على ما يرونه مثالية مفرطة في توصيف التراث الصوفي وإغفالاً للتجاوزات التاريخية التي رافقته أحياناً. غير أن طه عبد الرحمن يُجيب عن هذا الاعتراض بأن نقده يتوجه إلى المنطق الداخلي للتراث الصوفي في صورته المثلى لا إلى انحرافاته التاريخية العارضة.[2] وهذا ما يطغى على جميع خطاباته في سياق سعيه لبناء منظومة نقدية عربية خالصة مما يعلق فيها من التراث الغربي وما سواه.

ثالثاً: النقد النسقي في ميدان الحداثة:

يُفرد طه عبد الرحمن في كتابه(فقه الفلسفة جزءين، 1995م و1999م)[3]، حيّزاً واسعاً لنقد ممارسة الترجمة الفلسفية العربية، معتبراً إياها ميداناً كاشفاً عن أزمة أعمق في العلاقة مع الإنتاج الفكري الغربي. فالترجمة الفلسفية، في ممارستها السائدة، تنقل المصطلحات دون نقل الإطار المرجعي الكامل الذي تستمد منه معناها، مما يُفضي إلى ما يسميه طه عبد الرحمن التلقي الذي يكون الطرف العربي في موقع الاستلاب الفكري[4]: وهو موقف يستهلك المنتج الفكري الغربي دون مساهمة إبداعية حقيقية.

ونجده في (روح الحداثة: المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية -2006م) وكتابه (بؤس الدهرانية-2014م)، يُطبّق طه عبد الرحمن النقد النسقي على أطروحة العلمانية الشاملة، كاشفاً ما يُسميه(التناقض الدهراني): فالعلمانية التي تدّعي الحياد التام إزاء المنظومات القيمية والدينية تنطوي في الوقت ذاته على التزام قيمي خاص بالفردانية العلمانية الليبرالية. وهو التزام يُعلنه النقد النسقي مكشوفاً غير مبرر بالحيادية التي تدّعيها[5].

ونراه يُطبّق النقد النسقي هنا على مفهوم (الفلسفة) ذاته: فبدلاً من قبول الترجمة الحرفية، يُقترح طه عبد الرحمن البحث عن المعادل التداولي العربي الإسلامي للممارسة الفلسفية، وهو ما يجده في مفهوم (الفقه) بمعناه الاشتقاقي الواسع (الإدراك العميق)، فـ(فقه الفلسفة) ليس ترجمة للفلسفة بل هو تأسيس لممارسة فلسفية بمرجعية عربية إسلامية.

ولعل أبرز التطبيقات الجريئة للنقد النسقي عند طه عبد الرحمن والذي ظهر لنا هو ما قدّمه في كتابه (روح الحداثة: المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية-2006م) من نقد للحداثة الغربية لا من خارجها بل من خلال استيعابها وتجاوزها. فهو يرفض الادعاء بأن الحداثة الغربية نموذج إنساني كوني واجب

---

[1] ينظر: العمل الديني وتجديد العقل: 157-161؛ وينظر: سؤال العمل: بحث عن الأصول العملية في الفكر والعلم:201.

[2] ينظر: نور الدين الصوشي، المزاوجة بين التراث والحداثة في فكر طه عبد الرحمن، مجلة مسالك، المغرب، العددان 29-30، 2016م: 88.

[3] ينظر: طه عبد الرحمن، فقه الفلسفة (ج2: القول الفلسفي): 35-52.

[4] طه عبد الرحمن ، روح الدين من ضيق العلمانية إلى سعة الائتمانية: 181-184.

[5] بؤس الدهرانية: النقد الائتماني لفصل الأخلاق عن الدين:34.

الاتباع، مُبيّناً أن هذه الحداثة قامت على خيارات فلسفية محددة (الاستقلالية الفردية، وعقلانية الأداة، والعلمانية الشاملة) لا يُبرر شيء اعتبارها خيارات كونية بالضرورة[1].

ووجدناه يُقدّم طه عبد الرحمن نقداً نسقياً لمفهوم (العلمانية)، مُقترحاً تمييزاً بين (العلمانية المحدودة- فصل المؤسسة الدينية عن الدولة) التي لا يرفضها، و(العلمانية الشاملة- إقصاء الدين من الحياة العامة كلها) التي يراها اختزالاً لإمكانات الإنسان وإفقاراً لفضائه الروحي[2]. والنقد هنا نسقي لأنه يكشف التناقض الداخلي في الخطاب العلماني الشامل الذي يدّعي الحياد وهو في الوقت ذاته يفرض تصوراً خاصاً للإنسان والمجتمع.

ورأينا أن مفهوم روح الحداثة الذي صاغه الدكتور طه، مفهوم نظري مجرد، لا يمتّ بصلة لأي تطبيق من تطبيقات الحداثة، وغير محكوم بها، بل حاكم عليها، واستنادا إليه تبدو الحداثة الغربية مجرد تطبيق ناقص من بين عدة تطبيقات محتملة، كما يتيح من الناحية النظرية إمكانية ظهور تطبيقات أخرى أكثر نضجا من التطبيق الغربي. ومن ثم، فمشكلة التحديث في الوطن العربي من منظور أطروحة طه، تكمن أساسا في استدعاء العرب(التطبيق الغربي)، وسعيهم وراءه، وبالمقابل إهمالهم الروح المولدة للفعل الحداثي الحقيقي، أي تمثل شروط روح الحداثة في الفعل، وبالتالي الإتيان بتطبيق جديد يتجاوز المنجز الغربي (الحداثة الغربية وما بعدها)[3].

ويُقدّم طه عبد الرحمن أيضاً تمييزاً نقدياً ضرورياً بين مستويين: (العلمانية السياسية المحدودة) التي تُنظّم العلاقة المؤسسية بين الدين والدولة، وهي مبدأ لا يرفضه؛ و(العلمانية الإيديولوجية الشاملة) التي تسعى لإقصاء الدين من الفضاء العام كله، وهي ما يخضعه للنقد النسقي الجذري. ويُلاحَظ أن هذا التمييز يتوافق مع ما طوّره الفيلسوف الأمريكي تشارلز تايلر من نقد داخلي للعلمانية الحديثة في أعماله[4].

لنجده يصل طه عبد الرحمن في تطبيقاته النقدية إلى مفهوم (الحداثة الإسلامية) الذي بيَّنه في ثلاثة مبادئ متتالية: أولها(مبدأ الشمول)، إذ الحداثة الإسلامية لا تنفصل الروحي عن العقلي ولا العام عن الخاص. وثانيها (مبدأ الإبداع)، إذ لا تكتفي بالاستيراد الفكري بل تُنتج من داخلها معرفة أصيلة. وثالثها(مبدأ التقويم)، إذ لا تُكرّس الموروث على علاته بل تخضعه باستمرار لميزان النقد والتجديد[5].

ويمكننا القول أن كل تطبيقات النقد النسقي في مشروع طه عبد الرحمن تُتوَّج بمفهوم (الحداثة الإسلامية) الذي تناوله في كتابه (روح الحداثة- 2006م)، وهذه الحداثة مغايرة للحداثة الغربية التي عهدناه في ثلاثة خيارات فلسفية: فبإزاء الاستقلالية الفردانية الغربية تقترح الائتمانية الإسلامية، وبإزاء العقلانية الأداتية تقترح العقلانية الأخلاقية، وبإزاء العلمانية الشاملة تقترح الشمولية الروحية[6].

ويُنبّه الباحث عمر مهيبل إلى أن مفهوم الحداثة الإسلامية عند طه عبد الرحمن لا يدّعي أفضلية حضارية للإسلام بل يطرح تصوراً بديلاً للإنسانية قد يُغني النقاش الفلسفي الكوني؛ إذ يعترض على الادعاء بأن الحداثة الغربية هي النموذج الكوني الوحيد بالحجة الفلسفية لا بالرفض الغرائزي، وبذلك

---

[1] روح الحداثة: المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية: 127.
[2] يُنظر: عمر مهيبل، في مقارنة مشروع طه عبد الرحمن بتايلر، مجلة الفكر العربي المعاصر، العددان 162-163، 2013م: 67.
[3] ينظر: روح الحداثة: المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية: 275 ومابعدها.
[4] ينظر: في مقارنة مشروع طه عبد الرحمن بتايلر: 67.
[5] ينظر: روح الحداثة: المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية: 20-35.
[6] ينظر: روح الحداثة: المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية: 127.

تكون الحداثة الإسلامية إسهاماً في الفلسفة الإنسانية الكونية لا انكفاءً عنها[1] ، وهذه النقطة الرئيسة في مشروع طه عبد الرحمن.

وبهذا تُشكّل الحداثة الإسلامية- في مشروع طه عبد الرحمن- في رأينا أفق النقد النسقي ومحطّته الغائية: فكل نقد صحيح يُوجَّه في نهاية المطاف نحو بناء هذه الحداثة البديلة التي تستوعب إيجابيات الحداثة الغربية وتتجاوز قصورها انطلاقاً من خصوصية التجربة الروحية والحضارية الإسلامية.

غير أنّ القيمة الحقيقية لهذا المشروع كما تبين لن لا تقف عند حدود اقتراح بديلٍ حضاري، بل تتجلّى في إعادة تعريف فعل النقد نفسه بوصفه ممارسةً أخلاقيةً ومعرفيةً تستهدف تقويم الإنسان قبل تقويم الأفكار. ومن هنا يغدو النقد النسقي عند طه عبد الرحمن مشروعاً لإعادة ترتيب العلاقة بين العقل والوحي، وبين الفعل والقيمة، وبين الحداثة والهوية، على نحوٍ يرفض القطيعة كما يرفض التبعية. وبذلك لا يقدّم طه مجرد اعتراضٍ على الحداثة الغربية، بل ينجز مساءلةً جذريةً لمسلّماتها من داخل أفقٍ تداوليّ وروحيّ مغاير. ولعلّ هذا ما يمنح مشروعه فرادته ؛ فهو لا يكتفي بنقد النسق السائد، وإنما يسعى إلى تأسيس نسقٍ بديلٍ قادرٍ على إنتاج حداثةٍ ذات معنى حضاري وأخلاقي وهذا الذي حدد لنا نقده النسقي الذي تتبعنا خيوطه في مؤلفاته المتعددة.

الخاتمة

خلص هذا البحث في ضوء تحليله لمفهوم النقد النسقي عند طه عبد الرحمن وتطبيقاته المنهجية إلى جملة من النتائج العلمية التي يمكن إجمالها على النحو الآتي:

- يُشكّل النقد النسقي عند طه عبد الرحمن إضافة نوعية حقيقية إلى الفلسفة العربية المعاصرة؛ إذ يتجاوز التأثر المباشر بمناهج الفلسفة الغربية نحو بناء أداة نقدية تنبثق من الداخل وتعمل على إصلاح المنظومة الفكرية بمنطقها الخاص.
- تُمثّل التداولية النقدية التي يُطوّرها طه عبد الرحمن منهجاً فلسفياً يتفوق على المنهجية على منهج النقد التحليلي المجرد في كونها لا تنفصل عن الالتزام القيمي للفاعل.
- يكشف البحث أن الأخلاق تحتل موقعاً محورياً لا ثانوياً في مشروع طه عبد الرحمن.
- ينجح طه عبد الرحمن - وهذه من أبرز مساهماته - في تجاوز الثنائية المُشِلّة بين الأصالة والمعاصرة، لا عبر التوفيق الاعتباطي بين طرفيها، بل عبر إخضاع كليهما لمعيار نقدي واحد: هو مدى خدمة هذا .
- يُؤسّس طه عبد الرحمن لمفهوم الحداثة الإسلامية بوصفها مشروعاً مفتوحاً ومتصلاً لا نقطة وصول نهائية؛ وهذا انسجام تام مع منطق النقد النسقي ذاته الذي لا يسعى إلى قول أخير بل إلى حركة دائمة من التقويم والتجديد.
- لا يخلو مشروع طه عبد الرحمن من إشكاليات وتوترات داخلية: فالعلاقة بين العقل المؤيَّد والعقل المجرد تبقى أحياناً غامضة الحدود، وتطبيقات النقد النسقي في ميداني التصوف والفقه قد تتعرض لاعتراضات من أهل الاختصاص في هذين الميدانين.
- يبقى مفهوم (الحداثة الإسلامية) في حاجة إلى مزيد من التوضيح في جانبه المؤسسي والسياسي، إذ يغلب عليه حتى الآن الطابع الأخلاقي والروحي دون أن يُكمل خريطة الطريق نحو الترجمة الاجتماعية والسياسية.

---

[1] ينظر: في مقارنة مشروع طه عبد الرحمن بتايلر: 71.

- وجدنا مساهمة طه عبد الرحمن في بناء الفكر الإسلامي المعاصر مساهمةً استثنائية؛ إذ قدّم نموذجاً يُثبت أن الفلسفة العربية الإسلامية قادرة على الإنتاج الأصيل والحوار النديّ مع المنجزات الفكرية الغربية دون استلاب ولا انغلاق.

المصادر والمراجع

أولاً: الكتب العربية والمترجمة:

- أبجديَّات البحث في العلوم : محاولة في التَّأصيل المنهجيّ ، فريد الأنصاري ، منشورات الفرقان ، ط1، الدار البيضاء ـ المغرب ، 1997م.
- أحمد بن فارس بن زكريا ، معجم مقاييس اللغة : ، دار أحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2001م.
- أحمد يوسف ، القراءة النسقية سلطة البنية ووهم المحايثة: الدار العربية للعلوم والنشر منشورات الاختلاف، الجزائر ، ط1، 2017م.
- إديث كريزويل، عصر البنيوية : ترجمة . جابر عصفور، دار سعاد الصباح، الكويت، ط1، 1993 .
- أمانويل كانط، تأسيس ميتافيزيقا الأحلاق، تر: عبد الغفار مكاوي، دار الثقافة ،د.ط، القاهرة، 1956م.
- الحداثة الأخلاقية في الفكر الإسلامي: مشروع طه عبد الرحمن للتجديد الحضاري، عبدالرحمن حسنيوي، مدونة الهامش الثقافية، المغرب،2026م.
- حسن حنفي، التراث والتجديد: موقفنا من التراث القديم، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط5، 2002م.
- الخليل بن أحمد الفراهيدي ، كتاب العين، تحقيق د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، العراق، د.ط، 1982.
- طه عبد الرحمن بؤس الدهرانية ، طه عبد الرحمن، الشبكة العربية للابحاث والنشر، بيروت، 2014م.
- طه عبد الرحمن ، حوارات من أجل المستقبل، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2011م.
- طه عبد الرحمن ، روح الدين من ضيق العلمانية إلى سعة الائتمانية، المركز الثقافي العربي، ، ط2، الدار البيضاء المغرب، 2012م.
- طه عبد الرحمن، العمل الديني وتجديد العقل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-بيروت، 1997م.
- طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-بيروت، 1998م.
- طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-بيروت، 1994م.
- طه عبد الرحمن، روح الحداثة: المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، المركز الثقافي العربي، 2006م.
- طه عبد الرحمن، سؤال الاخلاق: مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، بيروت: الشبكة العربية للابحاث والنشر، ،2000م.
- طه عبد الرحمن، سؤال العمل: بحث عن الأصول العملية في الفكر والعلم، المركز الثقافي العربي، 2012م.
- طه عبد الرحمن، فقه الفلسفة - (ج2: القول الفلسفي)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-بيروت، 1999م.
- عبد الرزاق بلعقروز، تحولات الفكر الفلسفي المعاصر: أسئلة المفهوم والمعنى أو التواصل، الجزائر، منشورات الاختلاف، ط1، 2009م.
- عبد السلام المسدي، ما وراء اللغة(بحث في الخلفيات المعرفية)، مؤسسة عبد الكريم، د.ط، تونس، 1994م.
- عبد السلام بنعبد العالي، أسس الفكر الفلسفي المعاصر: مساءلة الهوية والاختلاف، دار توبقال، الجزائر ، 1997م.
- عبد الله الغذامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية : المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط.3، 2005.
- عبد المنعم الحفني ، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة: في العربية والانكيزية والفرنسية والألمانية والايطالية والروسية واللاتينية والعبرية واليونانية، مكتبة مدبولي، ط3، القاهرة ـ مصر، 2000م.
- محمد سيد أحمد المسير، قضايا الفكر الاسلامي المعاصر، د.ط، القاهرة، دار نهضة مصر للطابعة والنشر، د.ط، 2002م.

- محمد عابد الجابري ، تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1984م.
- محمد عابد الجابري، التراث والحداثة. دراسات ومناقشات. مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت، ط1، 1991م.
- محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1986م.
- محمد غنام، قراءة في تقييم الفيلسوف المغربي طه عبد الرحمن للأخلاق الغربية الحديثة من خلال كتابه سؤال الأخلاق، مركز نماء للبحوث والدراسات، فاس- المغرب، 2020م.
- معجم المصطلحات الأَدَبِيَّة : عربي- انجليزي ، حسين نصار، دار المعتز، ط1، عمان-الأردن، 2011م.
- نور الدين الصوشي، المزاوجة بين التراث والحداثة في فكر طه عبد الرحمن، مجلة مسالك، المغرب، العددان 29-30، 2016م.
- يوسف محمود عليمات، النقد النسقي (تمثيلات النسق في الشعر الجاهلي)، الأهلية للنشر والتوزيع، ط1، عمان – المملكة الأردنية، 2015م.

ثانياً: المجلات والدوريات الجامعية:

- جلول مقورة ، تهافت الانموذج التجزيئي للتراث: طه عبد الرحمان قارنا للجابري جامعة مسيلة: جامعة محمد بوضياف بالمسيلة: مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، ع :11، ديسمبر 2016م.
- عمر مهيبل ، في مقارنة مشروع طه عبد الرحمن بتايلر، مجلة الفكر العربي المعاصر، العددان 162-163، 2013م.
- نور الدين بن قدور، الاستقلال الفلسفي والتجديد عند طه عبد الرحمن، مجلة إسلامية المعرفة، السنة الرابعة والعشرون، ع ٩٣، الأردن، صيف ٢٠١٨م.
- وليد الحارثي، الائتمانية الأخلاقية ومشروع العقل المؤيَّد، مجلة الفلسفة والعلوم الاجتماعية، تونس، المجلد 7، العدد 1، 2019م.
- يوسف بن عدي، الفكر الإسلامي والمسألة الأخلاقية، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد 44، العدد 2، 2015م.

ثالثا: بحوث الانترنيت:

- موقع مجلة الاصلاح التحرير مجلة الاكترونية، https://alislahmag.com.
- موقع منار الإسلام للأبحاث والدراسات، احمد الفراك، 2023م.